المرأة في روايتي "أنا حرة" لإحسان عبد القدوس و"زقاق المدق" لنجيب محفوظ

الباحثة/سامية محمود محمد مسعود

الملخص:

يتناول هذا البحث دراسة حضور المرأة بين رواية "أنا حرة" الصادرة عام ١٩٥٤ لإحسان عبد القدوس، ورواية "زقاق المدق" التي الصادرة عام ١٩٤٧ لنجيب محفوظ، وذلك من خلال مناقشة صورة المرأة بين الكاتبين ومحاولة الكشف عن وضع المرأة عند كل منهما من خلال محاور رؤيتهما المتنوعة للعالم، بالإضافة إلى دراسة ارتباط الشخصيات الروائية عند كل منهما بالفضاء المكاني.

Abstract

This paper introduces a critical study based on the balancing between the novel entitled "I AM FREE" written in ١٩٥٤ by AHSAN ABDELQODOOS and the novel entitled ZOQAQ AL MIDAQ written in"١٩٤٧ by NAGUIB MAHFOUZ, and this through woman' image discussion between the two writers and their tendencies to unfold the woman position through his own point of view using the aspects of their different visions to the world, in addition to the study of relation of the characters of the novel to the spatial atmosphere through their own visions.

مقدمة

تقدم بنية العمل الأدبي خبرة موضوعية وفلسفة فكرية للواقع الإنساني، حيث إن الأدب "لا يقدم رأيا، وإنما يشكل (رؤية)، ولا يعكس محاكاة مباشرة للواقع إنما (موازاة رمزية) له ومعادلا موضوعيا لكل ما ينفعل به الفنان، وهو إذ يصور قضية ما – في سياق تاريخي محدد – فإنه ينطلق من موقف فكري إزاءها، غير أن موقف الفنان لا يسجل بشكل تقريري مجرد، وإنما يصور بطريقة أقرب إلى التأثير الانفعالي يعبر عنها (جماليا) بلغة الفن الرمزية ".[١]

وعلى هذا فالتجربة الأدبية تمثل رؤية الأديب للحياة، والبشر، والطبيعة، والكون.. إن الفنان ينطلق من "مثير محدد، أو حقيقة نسبية لفرد في لحظة تاريخية معينة، ثم يتجاوز النسبي إلى المطلق ومحنة الفرد إلى (قضية الإنسان). وعلى قدر لمح البعد الإنساني لجوهر الموقف المعبر عنه، تتجاوز التجربة الأدبية المعطي التاريخي إلى استشراق الحلم الفني، وتصبح أسطورة دائمة الثراء والخصوبة، فالفن الحقيقي مهما يكن وليد عصره، فإنه يحمل قيمة ثابتة من قيم الإنسانية الخالدة".[٢]

من هذا المنظور يسعي البحث إلى دراسة شخصية المرأة من ناحية تعبيرها عن رؤية العالم عند كل من الكاتبين "إحسان عبد القُدوس" و "نجيب محفوظ" محاولين الربط بين إبداع كل من الكاتبين بالظواهر السوسيولوجية في مصر في فترات مختلفة من تاريخها، والتقاط العلاقة بينها ومدي قدرتهما على بلورة رؤية العالم لديهما من منظور المرأة، حيث حاول كل أديب أن يطرح رؤيته الفلسفية من خلال أعماله الإبداعية.

فقد جاء نموذج المرأة في أدب إحسان عبد القدوس الروائي مختلفاً وجديداً عن غيره من النماذج النسائية المعتادة في الروايات الأخرى، فهي لم تكن المرأة الريفية بنت القرية ولا المرأة الشعبية ولا المرأة في التاريخ ولا نموذج المرأة المثالية التي تتراءى خيرا خالصًا أو المرأة الأفعوان التي تتراءى شرًا مطلقًا بل هي نموذج المرأة الجديدة التي وجدت نفسها وحققت ذاتها وأثبتت شخصيتها في العالم الذكوري، هي ابنة المجتمع الجديد بكل ما أتاحه لها من انفتاح وثقافة وحرية وانطلاق في عالم مفتوح بعيد عن عالم القيود والسدود.

تشكل صورة المرأة وقضاياها المحور الأساسي في أدب إحسان، فهي المحور الذي ترتكز عليه مضامين أعماله الإبداعية عن صور المرأة وحياتها، حيث راح يعبر عنها بأبعاد مختلفة، فقد رسم في

أعماله صورة المرأة بكل تنوعاتها بقلم واقعي رصد صور وأنماط مختلفة للمرأة من هذه الأنماط الواردة في ثنايا أدب إحسان عبد القُدوس.

١- شخصية المرأة المتمردة:

حفلت العديد من روايات إحسان بنمط المرأة المتمردة على ما هو قائم من العادات والتقاليد وقيود المجتمع، وكانت نموذجاً حاضراً في أعماله.

فنجد شخصية البطلة "أمينة" في رواية "أنا حرة" التي صدرت عام ١٩٥٤، والتي لقيت دويا واسعا وقت نشرها، وقد نشرت أربع مرات في أقل من خمس سنوات،حتى أن النقاد اعتبروها التطبيق العملي لأفكار "قاسم أمين" عن حرية المرأة.

يتناول إحسان قضية التمرد على المجتمع بأعرافه وتقاليده، ويناقش حرية الإنسان بشكل عام وحرية المرأة بشكل خاص، بطلة الرواية فتاة ثائرة متمردة تحاول ممارسة بعض أمور الحياة العادية، لكن يقابل ذلك بالقمع والقسوة من أهلها فتحاول بشتى الطرق الوصول إلى الحرية ذلك الهدف المنشود.

ونجد شخصية "ثناء" في رواية "لاشيء يهم" التي نشرت عام ١٩٧٥ نموذجا آخر لتمرد الأنثي التي تهوي الخروج عن كآبة حياتها، حيث قدم الكاتب صورتها وهي تكافح من أجل الوصول إلى حلمها، حيث كانت ترفض الزواج معللة بأن هؤلاء الخطاب الذين يترددون على البيت لن يحققوا أحلامها، فكانت ترفض بذكاء وقاومت في ذلك زوجة أبيها إلى أن تزوجت من الرجل التي ظلت تبحث عنه.

كما نجد ايضا شخصية "سارة" في رواية "قلبي ليس في جيبي" ١٩٩٠م نموذجا للمرأة التي تمردت على مأساتها الشخصية في الفقر والعوز وواقعها الاجتماعي الذي يقبع تحت قسوة الظروف، عقب فترة الانفتاح التي عاشتها مصر في فترة الثمانينات، فنجد سارة على مدار الرواية تستغل كل ما تقابله لتحقيق غايتها، تعبر سارة عن قضية البرجوازية الصغيرة التي تحاول أن تهجر بيئتها المليئة بالحرمان والتطلع إلى الطبقة الارستقراطية لتبحث في ثناياها عن الحب والسعادة. لم يقف الفقر حائلاً دون مواصلة تعليمها، بل إنها كانت متفوقة واستطاعت الالتحاق بالجامعة الأمريكية، بمنحة، كما أنها حققت الثراء الذي كانت تحلم به، لقد كان الأكبر في حياتها هو رغبتها الشخصية تجاه الحب فقد كانت تبحث عن رجل تحتمي به، وكان هذا هو هدفها المنشود، فكانت وحيدة وتحتاج

إلى رجل يملأ حياتها بالحب والاهتمام، تقع سارة في حب السائق الخاص بها، ولكنها تظل في حيرة بين الاستسلام لمشاعرها وبين الحفاظ على ثروتها من استغلال رجل تحت مسمي الحب.

لتنتهي رواية "قلبي ليس في جيبي" كما انتهت: رواية "أنا حرة" بوضع المرأة في إطار الشخص الناقص، فهى لا تشعر بالسعادة بالرغم من نجاحاتها المتعددة بسبب عدم وجود رجل في حياتها. على النقيض تماما تأتي شخصية "نظيرة" بنت الحاج عبد الغفور البرعي في رواية "لن أعيش في جلباب أبي" التي نشرت عام ١٩٨٢، فهي من أسرة ثرية، دخلت الجامعة الأمريكية لإثبات شخصيتها كبنت راقية من بنات المجتمع، تسعى "نظيرة" إلى البحث عن شخصية مستقلة عن والدها في محاولة لإثبات ذاتها، وقد رفضت عرض الزواج من "حسين الراوي".. وهو مهندس لديه شقة صغيرة جعلها مكتباً له.. وإن كانت قد أعطته وعدا بأنها لن تتزوج إلا منه لكن بعد إثبات ذاتها وخاصة بعدما عرفت بحقيقة زواج اختيها "بميرة، سنية" وأسباب طلاقهما المتعلقة بطمع زوجيهما بالأب المليونير، ولكنهما وجداه لا يغدق على بناته بالأموال ولا يحقق أطماعهما مما أدي إلى فشل الزيجتين.

قدم الكاتب هذه الشخصية المتمردة على واقعها مع احتفاظها باحترام والديها والاعتزاز بهما.

٢- شخصية المرأة المناضلة:

جاءت هذه الشخصية النضالية كرد فعل للمتغيرات الحياتية بكل مناحيها، فنجد شخصية "روزالين" في رواية " لن أعيش في جلباب أبي" التي نشرت عام ١٩٨٢، فهي فتاة أمريكية تركت عائلتها وسافرت للدراسة، وأصبحت طبيبة في أمراض اللثة، ثم انتقلت من أمريكا إلى مصر مع زوجها "عبد الوهاب"، وقد حاولت الالتحاق بالعديد من الأعمال، حيث اشتغلت سكرتيرة في مكتب توكيلات تجارية حتى بعد ما تزوجت كانت تسعي إلى أفق خاص بها وظهر هذا جليا عندما سعت للعمل مع الحاج عبد الغفور البرعي عدة مرات.

لكن لم يقدم لها أحد العون في الحصول على عمل، رفضت هذا الوضع من الجميع، وتم الطلاق بينها وبين زوجها، وأكملت مسيرة كفاحها مع الدكتور "عطا الله" والتي كانت تعمل معه مساعدة في عيادته الخاصة.

٣- شخصية المرأة التقليدية:

تمثل شخصية "فاطمة" زوجة الحاج عبد الغفور البرعي في رواية " لن أعيش في جلباب أبي" مثالا واضحًا على صفات ومعالم هذا النمط التقليدي للمرأة، التي تتمحور حياتها على وجود الرجل، حيث يعد لها مرتكزاً جوهرياً فيه السعادة والاستقرار العائلي الدافيء، تقدم هذه المرأة فرائض الطاعة والاحترام لزوجها فهي تابعة وخاضعة له دائما.

لم تستحوذ هذه الشخصية على مساحة كبيرة في كتابات إحسان، حيث إنه لم يتطرق لها إلا في مواضيع غير محورية.

٤- شخصية المرأة الحالمة:

لامست هذه الشخصية كل صور المرأة في أدبيات إحسان عبد القدوس مهما اختلف النمط التعددي للمرأة، جاء هذا النموذج في أكثر من رواية رسمت خصوصياتها صورة المرأة الحالمة الساعية وراء حلمها، فنجد شخصية "نوال" في رواية "بعيدا عن الأرض" التي نشرت عام ١٩٧٦، تكرس حياتها لأبحاثها العلمية، فكان حلمها الذي كانت تسعي إليه أن تصبح عالمة في علم الصيدلة والحصول على الدكتوراة، وكانت لا تهتم بأي شيء في حياتها حتى الحب والزواج، وكانت جادة في رفضها للزواج حتى تحقق حلمها في تحقيق ما تصبوا إليه.

كما نجد "ثناء" في رواية "لا شيء يهم" والشخصية الثانوية "ماري" في نفس الرواية، وشخصية "نظيرة" في رواية "لن أعيش في جلباب أبي" تجسيدا لهذا النموذج الحالم لصورة المرأة.

٥- شخصية المرأة العاملة:

إصرار المرأة في هذا النموذج على العمل فيه تأكيد على رغبتها في المشاركة الفعالة، وتحمل المسئولية لتأكيد ذاتها وتحقيق كيانها، ففي رواية "لاشيء يهم" الصادرة عام ١٩٧٥ كانت تناضل "ثناء" من أجل تحسين أوضاعها فكانت تريد أن تعمل بالتمثيل معتمدة في ذلك على جمالها، فهي لا تريد أن تعيش عالة على أحد، فذهبت لتقابل مدير فرقة التمثيل ولبست كورسيه لكي تخفي حملها،ووافقت بعد ذلك أن يتربي الطفل عند عمته لتضمن الحفاظ على عملها طوال اليوم في المسرح، فهي تكافح من أجل البقاء واستمرار الحياة.

أراد إحسان بطرحه لصورة المرأة العاملة التي تناضل في الحياة من أجل معيشة أفضل أن يقدم صورة طبيعية لها تنفي عنها عجزا أو قصورا يكمن في الثقافة الاجتماعية.

تمكن إحسان من تلخيص فلسفة الواقع المجتمعي للمرأة في محاولة منه لإبراز حركتها في المعترك الفكري النفسي، وما يدور بداخلها من خواطر وأفكار وهواجس، بالإضافة إلى توضيح علاقتها بالمتغيرات الخارجية والتي كانت محل اهتمام الكاتب

كما نري قدرة الرواية الرومانسية على التعبير عن أزمة الحرية الذاتية وفساد الأوضاع الاجتماعية الخاصة بعلاقة المرأة بالمجتمع، فقد ربط إحسان أزمة المرأة بأزمة المجتمع ككل ولم يقتصر على مناقشة قضاياها على ناحية واحدة.

تعددت أنماط المرأة في روايات "نجيب محفوظ"، من حيث مستواها الطبقي والاجتماعي فنجد:

أولا: امرأة الطبقة الفقيرة:

قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ استطاع الاستعمار وأعوانه إحكام السيطرة على المجتمع المصري زمناً طويلاً، بالعمل على إهدار القيم الاجتماعية فيه من خلال المرأة، فقد أدرك المستعمر أن فتح المجال أمام رجال المجتمع ونسائه لاختراق تابو الجنس من شأنه أن يخلق مجتمعاً فاسداً منحلاً، لا يقدر أفراده على محاربتهم أو حتى الدفاع عن أنفسهم، فساد المجتمع الجهل وعمه الفقر ووسم بالتخلف الفكري والاجتماعي استخدم الجنس أول الأمر ضد المرأة فكان طريقاً لاستعبادها واستغلالها، ثم استخدمته المرأة بعد ذلك للتأثر على الواقع المزيف الذي تعيش فيه، معتقدة أنها بذلك ستحرر من قيوده التي أخضعتها وأذلتها، جاءت صور عديدة للمرأة في روايات محفوظ لتؤكد على أن العلاقة الفطرية الطبيعية بين الرجل والمرأة قد استغلت استغلالا بشعا، ولذلك دلالة قوية على أن محور الجنس في رواياته كانت له أبعاد سياسية.(٣)

تقابلنا "إحسان شحاته" في رواية "القاهرة الجديدة" التي نشرت عام ١٩٤٥، فهي فتاة جميلة تعيش مع أبويها وسبعة من الأخوة والأخوات في فقر مدقع فكان دخل الأسرة من محل صغير لبيع السجائر لا يفي باحتياجات الأسرة لم يعرف عن والدها إلا سوء الأخلاق والفساد فكان يجبرها على ممارسة الرذيلة من أجل الحصول على المال.

وفي رواية " زقاق المدق" نري الفتاة الجميلة "حميدة" يتيمة الأبوين، كانت تعيش مع امرأة تبنتها وراعتها منذ عهد الطفولة، وكان أهل الزقاق يعيشون في فقر وبؤس وخاصة نساء الزقاق، ازداد الأمر سوءا مع نشوب الحرب العالمية الثانية حيث ساءت الظروف الاقتصادية، وتدهور القيم

الاجتماعية بين سكان الزقاق،تزامنت هذه الظروف مع إجراء الانتخابات المحلية في الحي وحضور القواد "فرج إبراهيم" إلى زقاق المدق نجح هذا القواد في تمهيد طريق الانحراف والرذيلة حتى أصبحت عاهرة محترفة، حيث استطاعت الحصول على المال والخروج من دائرة الفقر.

إن شَخصيّة حميدة هي النموذج البارز في هذه الرّواية ففيها يأخذ الرمز طبيعة موحية ومعبرة عن جيل كامل تضافرت كل الجهود لتقضي عليه، ففيها تجمعت مأساة محجوب عبد الدايم وإحسان شحاتة، وحملت أيضاً في دلالاته مأساة مصر في جانبها الساقط والمتمثل في تلك السياسة المتردية، واستشهد برأي محمود أمين العالم الذي يرى فيها رمزاً للتمرد وعدم الرضا بالقضاء والقدر ويلتقيان في أن كليهما رحل إلى خارج الزقاق، هو إلى بيت الله وهي إلى حانات الإنجليز، لاشك أنه اتخذ من حميدة رمزاً لهذا التمرد والطموح وعدم الرضا". (٤)

تقابلنا أحداث "بداية ونهاية" بشخصية "نفيسة" تلك الفتاة التي توفي والدها وكان لها من العمر ثلاثة وعشرون عاما، كانت فقيرة الحال، ولا تملك مقومات الجمال، عملت في مهنة الحياكة لمساعدة أسرتها ماديا، كان أول رجل يبعث فيها الثقة هو البقال "جابر سليمان" فاستسلمت له فاستغلها جسديا ثم هجرها دون سبب واضح، وتحت وطأة هذه الظروف النفسية والاجتماعية الصعبة والتي لم تكن لديها القدرة على تخطيها ومقاومتها أصبحت عاهرة محترفة، حيث صارت الدعارة مصدر دخلها الرئيسي، وبينما هي تمارس هذا العمل ألقي القبض عليها، وبعد معرفة أخيها الضابط بهذا الأمر، ذهب لتسلمها وأثناء عودتهم إلى المنزل حاولت أن تهدئ من غضبه، متوسلة إليه ألا يحاول قتلها خشية أن يفقد شغله ومستقبله وعندما شعرت بفقدان الأمل قررت الانتحار قفزا في النيل لتتحمل وحدها المسئولية.

توجه "نفسية" صرخة احتجاج من جانب الكاتب ضد استغلال النساء في المجتمع ، فهي ضحية لظروف اقتصادية واجتماعية لم تستطع تغيرها أو مقاومتها فصارت عاهرة تبيع جسدها لمن يدفع المال.

إن المرأة في الطبقة الفقيرة، صارت عبثا في يد الأشخاص الانتهازيين، فهي لم تحظ باحترام المجتمع، فهي تمثل صورة سلبية وضعيفة للمرأة التي اضطرتها الظروف السيئة للسقوط في الرذيلة.

يقول نجيب محفوظ عن تطور أشكال ودلالات الجنس في أعماله الأدبية:

"رأيته كتشريح للنفس البشرية في السراب وبداية ونهاية، وزقاق المِدَق، في الأولى تجد العاجز جنسياً، وفي الثانية تجد تأثير الدمامة في مصير نفيسة، وفي الثالثة تجد الشذوذ ولكنك لا تفتقد

التعبير الاجتماعي في الوقت نفسه، كظاهرة أصيلة في البيئة...أما في زقاق المِدَق فهو ظاهرة بيئية... فسقوط "حميدة" ظاهرة بيئية أما في بداية ونهاية فالسيكولوجي يرتبط بالاجتماعي، والسراب تكاد تكون دراسة تربوية نفسية". (٥)

ثانيا: امرأة الطبقة المتوسطة:

تمثل صورة المرأة في هذه الطبقة صورة مختلفة تماما عن صورة المرأة الفقيرة، فهي هنا مشرقة مفعمة بالحيوية والنشاط، على نحو ما نجد في شخصية "نوال" في رواية "خان الخليلي" فهي فتاة جميلة ورشيقة تتمتع بحياة مستقرة ومطمئنة، تنحصر رغبتها الحقيقية في الحصول على زوج بأسرع ما يمكن كي تبدأ في تكوين أسرة خاصة بها، ولا تختلف شخصية "بهية" في رواية "بداية ونهاية" عن شخصية "نوال" كثيرا، حيث كانت بهية فتاة مكتملة الأنوثة تتسم بالحيوية والنشاط وحب الحياة، تنتمي إلى أسرة مستقرة ماديا واجتماعيا، غير أن بهية لم تكمل دراستها مثل نوال واكتفت فقط بالدراسة الابتدائية، وبقيت في البيت في انتظار الزوج المناسب، وكانت الدراسة والعلم بالنسبة لها أمورا شكلية وغير ضرورية وان الاعتناء بجسدها وجمال بشرتها أمور ضرورية وهامة من أجل جذب شريك الحياة.

تتطلع المرأة في الطبقة المتوسطة هنا إلى شريك الحياة، حول هذا التطلع والهدف يدور محور حياتها، فهي تري أن العلم مقدمة للحصول على الرجل المناسب الذي يعطيها حقها من الماديات والرعاية والاهتمام فقد وقعت المرأة في هذا النموذج تحت تأثير المجتمع لحملة الشهادات العليا ونظرة الاحترام وتقدير المجتمع لهم، فأخذت على عاتقها التسلح بالعلم إلى الحد الذي يعطيها مكان مرموقة في المجتمع، حيث يتوجه الرجال نحوها طلبا للزواج منها.

ثالثا: امرأة الطبقة الأرستقراطية:

لم يتجاوز محفوظ في وصفه ومعالجته للمرأة الأرستقراطية الحدود السطحية في التصور والوصف وهو في ذلك أراد أن يكشف عن مدي احتقاره للطبقة الأرستقراطية، ربما يعود ذلك النفور إلى نزعة محفوظ الاشتراكية، فالمرأة في هذه الطبقة امرأة مغرورة وتافهة في توجهاتها وتصوراتها وذلك لمحدودية تفكيرها السطحي.

نجد هذا النمط في شخصية "تحية حمدي بك" في رواية "القاهرة الجديدة" فهي فتاة مغرورة متتالية تنتمي إلى أسرة غنية، وأيضا شخصية "كريمة أحمد بك يسري" في رواية " بداية ونهاية "،

قدمها على أنها تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، هي مجرد اسم، فهي لا يعرفها، فقد قدمها هي وأسرتها باحتقار شديد ولم يورد أي معلومات عنها، إلا معلومات عابرة من خلال شخصيات أخري

قسمت أنماط المرأة في روايات "نجيب محفوظ" إلى خمسة أدوار مختلفة:

١. دور المرأة الأم:

يعتبر محفوظ من الكتاب القلائل الذين أتقنوا رسم دور الأم والأمومة ورفع دورها ومكانتها إلى مرتبة تدنو من التقديس والإجلال فقد كان مرتبطا بوالدته بشكل كبير تلك السيدة التي كانت حريصة على إكساب ابنها حب الثقافة، بمختلف صنوفها، فكانت تصحبه إلى المكتبات والمتاحف الإسلامية والمسيحية، عرف عنها من خلال حديثه عنها أنها كانت كارهة للاستبداد في الرأي، فقد أكسبته في ذلك الطباع الليبرالية التي تمجد الحرية المنضبطة.

جاءت العلاقة القوية بين محفوظ ووالدته لتكون سببا في احتفاظه بقدر كبير من الاحترام لكل النساء، فنحن لا نكاد نري نماذج نسائية ملوثة بالسقوط الأخلاقي في رواياته الأولي، ربما يرجع ذلك إلى تأثيره بالنموذج القريب منه وهو نموذج الأم المحبة الحنونة العفيفة، وهو ما نراه في شخصية "أمينة" في الثلاثية، لقد جسدت أمينة صورة الزوجة المخلصة المتدينة الأمية فهي نموذج للمرأة الملائكية.

كما نجد شخصية "أم نفيسة" في رواية "بداية ونهاية" التي تفرض سياجا من الحماية حول أبنائها بعد وفاة زوجها،فكان المعاش الذي تحصل عليه ضئيلا جدا لا يفي بتلبية الحاجات الضرورية لأسرتها إلا أنها لم تستسلم أمام الحياة، بل تسلمت المسئولية لمواجهة الموقف الصعب الناجم عن وفاة زوجها، فباعت بعض أساس بيتها وانتقلت إلى مسكن أصغر وارخص من أجل تخفيض التكاليف، وأقنعت ابنتها "نفيسة" بتعلم الخياطة حتى تساعدها على معاش الأسرة، كما حرصت على أن يجتاز ابنها "حسين" المرحلة الثانوية وعن طريق "أحمد بك" استطاع الالتحاق بوظيفة حكومية، كما حرصت على أن يكمل ابنها الثاني "حسنين" على مواصلة تعليمه العالي في مدرسة الضباط إلى أن تخرج منها، وهكذا كانت "أم نفيسة" تتحمل أية مسئولية تتعلق بأسرتها فكانت نموذجا رفيعا للتضحية ونكران الذات.

٢. دور المرأة الزوجة:

تبقي شخصية "أمينة" زوجة السيد أحمد عبد الجواد في الثلاثية نموذجا للمرأة التابعة لظل زوجها دون أن تكون لها شخصية، ولم ترتكب خطأ طيلة حياتها مع هذا الزوج العنيف، فكانت

نموذجا للأم والزوجة المقهورة تحت وطأة ثقافة الفكر الذكورى، كما جسدت هذا الدور أيضا شخصية "زينب"في رواية الحرافيش.

٣. دور المرأة الأخت:

قدم محفوظ شخصية "نفيسة" في رواية "بداية ونهاية" نري فيها نكران الذات والإيثار حتى أنها قامت بالانتحار من أجل إنقاذ أسرتها.

٤. دور المرأة العشيقة:

تحفل روايات "نجيب محفوظ" لهذا النمط من الشخصيات النسائية كانت أشهرهم "حميدة" في رواية "زقاق المدق" حيث واقع العوالم والرقصات اللواتي وجدن بالفعل في المجتمع في هذه الفترة التاريخية إبان الحرب العالمية الثانية.

٥. دور المرأة القوية:

تقابلنا شخصية "زهرة" في رواية "ميرامار" تلك المرأة الواثقة من نفسها، تواجه الرجال والمجتمع في تحد وجرأة، حيث قاومت وتعدت كل الإغراءات التي واجهتها في صمود وانتصار، وهي في ذلك ترمز إلى كل نساء المجتمع المصري بعد تحولاته، تلك المرأة التي تعتمد على نفسها في خضم صراع الحياة وتخترق بعزمها كل الحواجز، نجد أيضا شخصية الصحفية الطموحة "سمارة بهجت" في رواية "ثرثرة فوق النيل" تلك المرأة الإيجابية التي عكست الشخصية النسائية الواعية التي ترصد الخلل في الجوانب المختلفة من الحياة، وتحرك القضايا الإنسانية في مجتمعها.

برع "نجيب محفوظ" في تصوير أدق تفاصيل المجتمع المصري ونقل واقع الوعي المعاصرفيه، كما برع في معالجة الصورة الروائية للمرأة التي كشفت عن المجتمع الذكوري الذي يقصي المرأة ويقلل من شأنها ويحقرها، فهو إما يشوهها ويجعل منها عاهرة، فهو أما يقهرها تحت وطأة الوصاية الذكورية التي تجعل من المرأة فاقده الأهلية تحتاج طوال الوقت إلى حماية ووصاية المجتمع الذكوري.

ظهرت صورة المرأة العاهرة في كثير من رواياته لأن الدعارة كانت منتشرة ومعترف بها من قبل الحكومة فيما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ بالإضافة إلى رغبته في كشف المسكوت عنه في المجتمع الذكوري، الذي ينظر إليهم المجتمع نظرة احترام فيقدم للقارئ صورة فاضحة تكشف عن الخداع والنفاق الغالب على الشخصيات التي تحيط بالمومسات من النساء في حين جاءت مومسات أعماله ذوات قلوب نقية مليئة بالمشاعر النبيلة.

ارتباط المكان بشخصيات الرّواية:

المكان هو أحد المكونات الأساسية التي تبني الرواية وتعطيه شكلاً حيوياً فلا يمكن للأحداث والروايات والشخصيات أن تلعب دورها في الفراغ دون تحديد المكان، وقد يتحول المكان في بعض الأعمال المميزة إلى فضاء يحتوي كل العناصر الروائية، بما فيها من حوادث وشخصيات، وقد يكون المكان نفسه هو المساعد على تطوير بناء الرواية.

ومن المعروف أن الوعي بالمكان لا يعطي للرواية خصوصية فحسب، وإنما يعكس من زاوية أخرى مدى وعي الكاتب بالقضية التي يريد أن يطرحها.

والحقيقة أن المكان جزء عضوي في النص القصصي، يمتزج بالمكونات السردية الأخرى، ويتداخل معها في علاقات حيوية قوية لا انفصال فيها، فالحدث لا يتطور ولا ينمو إلا في مكان يدور فيه، والشخصيات تتضح ملامح هويتها وهيئتها – لدرجة كبيرة – من خلال الفضاء الذي تتحرك فيه، واللغة التي تعكس طبيعة المكان الصادر منه.

ورغم أن القاص يستمد عناصر فئة من الواقع، فإن المكان القصصي يختلف عن المكان الطبيعي الواقعي اختلافاً بيناً من منطلق أن العالم القصصي عالم (خيالي) من صنع القاص، حيث يخلق الكاتب عن طريق الكلمات "مكاناً خيالياً له مقوماته الخاصة وأبعاده المتميزة [٦]، لذلك فإن القصة رحلة في عالم متخيل، له موقعه الذي يوجد فيه، والذي يختلف عن العالم الحقيقي الذي يعيش فيه المتلقي، ولاشك أن "اتخاذ المكان القصصي يعطي الإشارات والعلامات والأسماء التي تتصل بالواقع ليس إلا نوعاً من الإيهام بواقعية الأحداث واختفاء المصداقية عليها". [٧]

ويترتبط المكان بالناس الذين يعيشون فيه ارتباطاً قوياً، حيث نجد "المكان على علاقة وثيقة بالشخصيات التي تؤمه وتسكنه، والعلامات التي يحملها تدل على الشخصية، كما أنه – يحمل على مستوى الرمز – قيماً تتراوح بين السلب والإيجاب"[٨]، إذ توجد علاقة جدلية بين المكان والشخصية من خلاص الدور الذي يقوم به كل منما، فالمكان يرسم الشخصية بالكثير من صفاته، ويمنحها بعض ملامحه الجسدية والنفسية، بينما الشخصية تشكل المكان تبعاً لطبيعتها النفسية واحتياجاتها الحياتية وذوقها الجمالي ومستواها الاجتماعي.

أبعاد المكان:

كل مكان له ملامحه وسماته الخاصة التي تميزه عن غيره من الأماكن، وتكون بمثابة علامة مميزة له دالة عليه، تتطبع في ذاكرة القارئ وخياله، والمكان ليس مجرد صورة تبقى في خيالنا فحسب،

بل "إنه يتمثل داخل جهازنا العصبي في مجموعة من ردود الفعل، فلو عدنا إليه في الظلام فلسوف نعرف طريقنا إلى داخله – ومثل هذا المكان يبلغ حداً من القوة تجعل القارئ يتوقف عن القراءة، ليستعيد ذكرى مكانه الخاص". (٩)

ففى رِواية "زقاق المِدَق" أنموذجاً نلاحظ أنها مثقلة بالإسقاطات والرموز،في حل الموازنة الصعبة بين الفن والفكر في رواياته، فقد علق نَجيب محفُوظ على توفيقه بقوله في أحد حواراته: الواقع أني أرفض المعادلات في تناول الأعمال الفنية، فالقصة يجب أن تمتعك بذاتها، أما البحث عن الرمز المقابل لكل شيء فسيحتاج الأمر إلى لوغاريتمات وليس إلى فن حقيقي، ربما يحتاج القارئ إلى جدول يطابق من خلاله الواقع على ما يقابله من رمز. إن الفنان عندما يبدأ في كتابة عمل ما، لا يعرف كيف، أو ماذا يكتب. فالفكرة العامة تحيا في ذهنه، لكنها تخضع عند الكتابة لاعتبارات أخرى عديدة.

"زقاق المدق" رواية عنوانها يوشك أن يحدد موضوع القصة وبيئتها، تجري الأحداث في مكان محدد هو ذلك الحي "زقاق المدق" الذي لا تخرج عنه الأحداث إلا قليلاً لتعود إليه، فهو شارع شعبي بأحد أحياء القاهرة العتيقة في فترة الحرب العالمية الثانية، هذا الشارع الصغير تندرج من خلاله مجموعة متنوعة من الأماكن الواردة في النص، فقد بدأ بوصف الشوارع والأحياء وانتهى إلى وصف الدكاكين والمنازل التي تمثل الفقر والتعاسة مكانياً وانعكاس ذلك على سكان أهل الزقاق وتوتر علاقات الناس فيه بعضهم ببعض، وما ينشأ عن ذلك من صراع، وحقد، وحسد، وتطلع هؤلاء الفقراء إلى حياة جديدة مليئة بالترف والبذخ.

وللمكان أبعاده المتعددة الخاصة به ومنها:

أولا: البعد الجغرافي:

وهو مجموعة من الإشارات الجغرافية التي تحدد أبعاد المكان وتكشف معالمه وتظهر مفرداته وعناصر المشكلة لحدوده التي تمثل نقطة انطلاق لتحريك خيال المتلقي.

تجري أحداث الرواية في مكان محدد هو ذلك الحي " زقاق المدق فهو شارع شعبي بأحد أحياء القاهرة العتيقة في عهد الحرب العالمية الثانية، وهذا الشارع تندرج من خلاله مجموعة من الأحياء المجاورة والشوارع وانتهي إلى وصف البيوت والدكاكين، ولا شك أن ذكر الأماكن الجغرافية بأسمائها في النص يعمل على إثارة خيال القارئ لاستدعاء ذكرياته المتعلقة بتلك الأماكن.

ورواية " زقاق المدق " غنية بالأبعاد الجغرافية للمكان نذكر منها:

- شارع وحي " زقاق المدق ": " وهو منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة، له باب على الصنادقية ".(١٠)
- شارع شريف باشا: وهو شارع كبير وبه عمارات ضخمة وفخمة وهو الشارع الذي يسكن فيه "فرج إبراهيم" الذي عرف "حميدة" عليه بقوله "هذا شارع شريف باشا" وهذا بيتي على بُعد خطوات ألا تحبين أن تريه. (١١)
- حي سيدنا الحسين: وفيه مسجد سيدنا الحسين وهو مكان ذو نزعة دينية يستبرك الناس به ويذهبون إليه من أجل الدعاء فيه وقد ورد على لسان " حميدة " في حديثها مع عباس الحلو "سأدعو لك بالتوفيق، وسأزور سيدنا الحسين وأسأله أن يرعاك ويكتب لك النجاح ". (١٢)
- شارع الأزهر: وهو المكان الذي يجتمع فيه عباس وحميدة وهو بعيد عن الزقاق وأهل الحي بالإضافة إلى بعض الأحياء الأخرى مثل حي الغورية، وحي الجمالية، وحي النحاسين والموسكي، وهي أحياء كانت تمر بها حميدة في طريق نزهتها أو ذهابها إلى المشغل، بالإضافة إلى بعض الميادين مثل ميدان الملكة فريدة، وميدان الأوبرا ةالتل الكبير الذي يوجد به المعسكر البريطاني.
- ونجد أيضا المقاهي والحانات: مقهى المعلم كرشة وكانت بمثابة مركز اجتماع الجميع من أهل الحي " وهي حجرة مربعة الشكل في حكم البالية، ولكنها على عطائها تزداد جدرانها بالأرابيسك فليس لها من مطارح المجد إلا تاريهخا وعدة أرائك تحيط بها. (١٣)
- وحانة فينا: وهي الخانة التي كانت تذهب إليها حميدة والتي قتل فيها عباس.
- المدارس والمقابر: حيث توجد مدرسة دعاة للفتيت الضحايا يتعلمن فيها الرقص الغربي والعربي ومباديء اللغة الإنجليزية وكانت من بينهم حميدة، كما توجد المقبرة التي تم فيها القبض على زيطة وبوشي أثناء سرقتهما طقم أسنان ذهبية من أحد أفواه الموتى.
- الدكاكين والمتاجر:
- صالون عباس: وهو صالون الحلاقة في الزقاق
- دكان العم كامل: وهو دكان على يمين مدخل الزقاق يبيع فيه البسبوسة.(١٤)
- وكالة السيد سليم علوان:هي وكالة كبيرة مجاورة لصالون الحلاقة.

- فرن المعلمة حسنية: يقع الفرن فيما يلي قهوة كرشة، بجانب بيت سنية عفيفي، بناء مربع على وجه التقريب، غير منتظم الأضلاع تحتل الفرن جانبه الأيسر . وتشغل الرفوف جدرانه. (١٥)

المنازل:

- منزل أم حميدة: هي شقة صغيرة استأجرتها من السيدة سنية عفيفي تسكنها مع حميدة وكانت بالشقة نافذة تطل على الزقاق وعلى مقهى المعلم كرشة، فكانت حميدة تسقط بصرها منها على كل الزقاق " وارتفعت النافذة ملقية ببصرها إلى الزقاق منتقله به من مكان إلى مكان " (١٦)
- منزل حسنية الفرانة: وفيه تسكن مع زوجها جعدة. (١٧)
- خرابة زيطة: وهي خرابة يستأجرها من المعلمة حسنية الفرانة،وهي خرابة لا تقل قذارة عنه لوناًومكاناً ورائحةً فقد كان متخصصا في وضع العاهات للشحاذين والمتسولين.

تمثل هذه المنازل الفقر والتعاسة مكانياً، أما منزل سنية عفيفي فهو يمثل الطبقة المتوسطة الحال، أما منازل السيد سليم علوان وفرج إبراهيم فهما يمثلان المساوي الفخم والذوق الرفيع، أما منازل السيد رضوان الحسيني فهو يمثل التقوى والبساطة معاً.

ثانياً: البعد النفسي:

"ينهض المكان فى المساهمة فى إبراز مشاعر الشخصيات الروائية، حيث يجعل قوة فاعلة فى الشخصيّة الروائية حيث تصبح الشخصيّة قادرة على التعبير عن كل مكبوتاتها الكامنة فى باطنها، وكذلك المساعدة على نشوء علاقة بين الشخصيات الروائية، حيث تنشأ علاقة صداقة تستمر حتى نهاية الرواية، وتقوم هذه العلاقة بين شخصيات الرواية فى مكان معين، وتتولد تصورات ومفاهيم الواقع من خلال تفاعل الكاتب مع هذا الواقع، الذى من خلاله يسرد أحداثه" (١٨).

يعكس البعد النفسي ما يثيره المكان من انفعالات سلبية أو إيجابية، حيث يهتم بإظهار واقع المكان على النفس البشرية، ومدى تأثيرها به بذلك يكون المكان بمثابة المرآة التي تنعكس عليها طباع الشخصية وصفاتها النفسية.

فعندما نقف لتتبع ملامح الزقاق وصورته بحثاً وراء دوره في التكوين النفسي لشَخصيّة لحميدة بوصفها مثالا على امتزاج الشَّخصية بالمكان يُلحظ قول السارد: "تنطلق شواهد كثيرة بأن زقاق المِدَق كان من تحف العهود الغابرة، وأنه تألق يوماً في تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدري..."

[١٩]. ثم ينقل القارئ دون تمهيد إلى صورة متناقضة تماما عن ظواهره الحالية: "أذنت الشمس بالمغيب، والتف زقاق المِدَق في غلالة سمراء من شفق الغروب زاد من سمرتها عمقاً إنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصنادقية ثم يصعد صعوداً في غير انتظام تحف به دكان، وقهوة، وفرن، وفي الجانب الآخر دكان ووكالة، ثم ينتهي سريعاً كما انتهى مجده الغابر ببيتين متلاصقين".[٢٠]

تفضح هذه الصورة الخارجية للزقاق عن أسرار كراهية حميدة لهذا المكان، فكل ما فيه يوحي بالضيق الذي ينبع من أعماقها ويمتد حتى منزلها الذي تعيش فيه حيث تشعر بالاغتراب المكاني حيث الأب والأم تعيش في كنفهما، لذا أصبح هذا المكان بالنسبة لها خالياً من أسباب السعادة، فهي تطلع دوما إلى الخروج منه، فهي تخرج يوميا بعد العصر خارج الزقاق تبحث عن حياة جديدة، في حين أن هذا الخروج باستمرار لم يكن من عادات وتقاليد الزقاق.

يمثل الزقاق لحميدة المكان القمعي المكروه، فهذا الزقاق هو الذي أعمي قلبها، وجعلها لا تشعر بوجود عباس الحلو الذي أحبها حبا صادقاً، فكان خيالها يتخطي دائما حدود الزقاق إلى عالم جديد خالٍ من الفقر والعوز، لذلك دفعته ليترك الزقاق ويذهب للعمل في الجيش الانجليزي.

هذا الزقاق الذي يذكرها أنها يتيمة الأبوين، فهي ترفض تماماً الرضوخ لهيمنة الزقاق وسلطويته على حياتها، فهي تبحث دوما عن طؤيق يخرجها من دائرة الانغلاق في مكانها القديم إلى مكان أكثر فسحة يخرجها من سلطة هذا المكان الذي تكرهه، لذلك تهافتت على الأفندي " فرج إبراهيم " عندما استشعرت أنه من خارج الزقاق حيث ظنت أنه الملجأ والمنقذ كي يخرجها من هذا المكان، ووجد فيها " فرج إبراهيم " فريسة سهلة تأتي إلى برغبتها وبإرادتها بعدما أشعل في قلبها حب الشهرة والمال، وانتقلت مع القواد " فرج " إلى ضالتها المنشودة حيث المكان الجديد الذي ظنته أنه باباً للسعادة والحياة الديدة الرغدة.

فالمكان الجديد هو مكان الطموحات والحلم المنشود لحميدة، فهي مع رجل غريب لكن هذا لا يهم، الأهم هو تحقيق ما تحلم به من سعادة ومستقبل مضيء زائف، هذا الحلم الذي أصبح حقيقة هو الذي أدي بها إلى طريق الرذيلة والهلاك، وبعد أن ندمت على كل ما فعلته عادت في خيالها إلى مكانها الأول الأصيل الذي خرجت منه وهو الزقاق ليلمع في مخيلتها بصورة النقاء والصفاء والبراءة.

وهنا تتحول صورة القبح إل جمال، حيث يمزج الكاتب بين الثنائيات الضدية ليجعل من هذا المكان الذي يؤرق حميدة وتراه سجنا يحمل كل معاني القبح والقذارة، وتطلع إلى الخروج منه، هو نفسه الذي يتشكل في مخيلتها كرمز للجمال والنقاء.

المكان هو البطل الحقيقي في معظم روايات نجيب محفوظ، فهو الرباط المقدس الذي يربط بين الفرد وذاته من جهة وبين مجتمعه وباقي الشخصيات حوله من جهة أخرى، فيكشف المكان عن خفايا وهواجس الإنسان الداخلية وما يعتلجها من صراعات نفسية وفكرية واجتماعية. فيكشف المكان الحجاب الذي يختبئ من ورائه مأساة هذه الشخصيات فهناك صور من الصراع النفسي والاجتماعي داخل شخصيات الرواية التي هي إحدى مخرجات هذا المكان بكل ما فيه من مؤثرات.

"إن البطل الحقيقي في رواية زقاق المدق ليس حميدة، أو عباس الحلو، أو إبراهيم فرج، إنما هو الزقاق نفسه، وباقي الشخصيات في الرواية لا تقوم إلا بدور الأبعاد المجسمة للتكوين الاجتماعي والنفسي للزقاق".(٢١)

وفي رواية "أنا حرة" أنموذجاً آخر، فهي قصة منتزعة من حياة إحسان عبد القدوس من حي العباسية الذي عاش فيه.

يقول إحسان في مقدمة الطبعة الثانية من الرواية " إنها قصة منتزعة من حياتي.. من حي العباسية الذي عشت فيه.. ومن شخصيات عرفتها فعلاً.. ومن آراء كنت أؤمن بها ومازلت أؤمن ببعضها".(٢٢)

انتقل إحسان عبد القدوس ليعيش وينشأ في بيت جده لوالده الشيخ رضوان – في حي العباسية – وكان من خريجي الأزهر وكان بحكم ثقافته وبعلمه ملتزم دينياً جداً، وكان يفرض على جميع العائلة الالتزام والتمسك بأوامر الدين والمحافظة على التقاليد، وقد تولت عمته تربيته مع أبنائها، ولكنه لم ينقطع عن زيارة والدته روزاليوسف، فكانت تسكن في الزمالك في عمارة يملكها الشاعر أحمد شوقي، وكانت تعقد في منزلها جلسات يجتمع فيها أهل الفن والأدباء، فجمع إحسان بين الثقافتين، وهو ما تجسد في كتاباته عن المرأة.

ارتبط إحسان عبد القدوس بالمكان "حي العباسية" الذي عاش فيه ومن خلال هذا المكان كتب عن شخصيات قد عرفها وعايشها على أرض الواقع، تقول الفنانة لبنى عبد العزيز بطلة فيلم "أنا حرة" ١٩٥٦ المأخوذ من الرواية ذاتها.

إن شخصية البطلة أمينة مستوحاة منها نفسها، تقول في حوار لها: أذكر أن الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس قال لي: أنا كتبت رواية "أنا حرة" بعد أن استوحيت ملامحها وشخصية البطلة منك، فقد كان إحسان صديقاً لوالدي وجارا لنا في حي جاردن سيتي، وعاصر إصراري على رفض كلية الآداب ورغبتي في الالتحاق بالجامعة الأمريكية.

ارتباط أمينة بطلة رواية "أنا حرة" بالمكان:

اهتم إحسان عبد القدوس في روايته "أنا حرة" بتحديد المكان اهتماماً كبيراً مما أعطى الحدث القصصي قدراً من المنطق والمعقولية، فالمكان له مفهوم شامل، فهو ليس مجرد مسرح تقع عليه الأحداث لكنه في الحقيقة عنصر فعال في النص، فالمكان هو "العمود الفقري الذي يربط أجزاء القصة ببعضها البعض".(٢٣)

حرص الكاتب على ذكر الأبعاد الجغرافية التي توضح ملامح المكان من أجل إثارة ذهن القارئ حول المكان موضع الأحداث ولاشك أن ذكر الأماكن الجغرافية بأسمائها في النص يعمل على "إثارة خيال القارئ لاستدعاء ذكرياته المتعلقة بتلك الأماكن".(٢٤)

ومن المؤكد أنه كلما كانت المعلومات الجغرافية التي يذكرها السارد عن البيئة موضع الحدث معلومات صحيحة وافية ومبنية على قواعد سليمة من علم الجغرافيا "كان تجسيده للشخصيات وإبداعه للمواقف مقنعاً فنياً وعلمياً، وذلك لأن الإلمام بالعوامل الجغرافية المتنوعة كفيل بإثراء التجربة الفنية للأديب، إذ يزوده بالأدوات والإيحاءات واللسمات التي تساعده على الربط العضوي بين شخصياته والبيئة المحيطة بها، وبذلك يحصل عمله الأدبي على الوحدة الدرامية التي تعد الشرط الأساسي لكل عمل ناجح". (٢٥)

وقد ارتبط البعد الجغرافي للمكان في الرواية بالبعد النفسي فنجد علاقة وثيقة بين المكان وشخصية "أمينة" سواء كانت سلبية أو إيجابية خاصة أنها قد تنقلت من خلال أحداث الرواية في عدة أماكن وهي:

أ – حي العباسية:

تدور أحداث الرواية حول الفاتنة السمراء أمينة التي تسكن في شارع الجنزوري بالعباسية مع عمتها، تلك الفتاة التي جاءت إلى العالم في ظروف صعبة حيث قام أبيها بتطليق والدتها قبل مولدها بثلاثة أشهر، وكانت الأم فقيرة الحال، الأمر الذي اضطرها إلى وضع طفلتها في أحد ملاجئ الأيتام، ليتحرك قلب الأب الذي كان يريد أن يعيش دون أدنى مسئولية ويأخذها إلى بيت شقيقته

لكي تعتني بها مقابل تنازله لها عن نصيبه من الميراث، وقضت أمينة طفولة قاسية من عنف العمة وزوجها.

من هنا تبدأ حياة أمينة في حي العباسية،حيث تمر بالعديد من المنعطفات ولعل مأساتها وهي طفلة حيث تعرضت للاغتصاب وهي في سن العاشرة من عمرها من جارها ذو الثلاثين عاماً يثير بداخلها الاشمئزاز، فكرهت كل الرجال.

وكانت ترفض جميع العرسان المتقدمين لها من أجل الزواج فقد تعلقت فقط بحريتها المنشودة، فهي تريد التحرر من كل القيود ومن منزل عمتها الذي أصبح لها سجناً تعيش بداخله.

ورغم هذه العلاقة السلبية التي تربطها بحي العباسية في هذه المرحلة من حياتها إلا أنها بعد نجاحها وحصولها على وظيفة هامة ومركز مرموق تعيدها الذكريات إلى حي العباسية وتشتاق إليها وإلى ذكريات المراهقة في شكل إيجابي.

ب – حي جاردن سيتي:

مع رفضها المستمر للزواج وهي الفتاة الثائرة على الأوضاع المجتمعية، تبحث عن حريتها لتحقيق طموحاتها، ترفض العمة وزوجها بقاءها معهم في المنزل، فتذهب للعيش مع والدها في حي جاردن سيتي فتجد حرية أوسع في منزل والدها الذي أصبحت هي سيدته، وتدخل الجامعة الأمريكية، حيث رأت أن الجامعة الأمريكية هي التي تمنح الحرية الحقيقية وسوف تعطيها حرية أوسع من تلك التي كان يمكن أن تجدها في كلية الآداب جامعة القاهرة، وهذا جعلها ترتبط وتصر على الجامعة الأمريكية، فكانت علاقتها بالمكان هنا علاقة إيجابية فهي تحب وتعشق المكان.

جـ –السجن:

فضاء السجن بين الفضاءات المكروهة لدى البشر، فهي تمثل أماكن إقامة قهرية، يجبر الإنسان على الإقامة فيها قهرًا ودون اختيار، وهو وسيلة للعقاب الذي يتمثل في حرمان السجين من كل ما يحب ويهوى.

تتقرب أمينة من عباس الذي ترى فيه المثل الأعلى في الحرية، لكنه يوجهها ويعلمها المعنى الحقيقي للحرية، وكان عباس يعمل صحفياً سياسيًا، مناضلاً من أجل الحرية والعدالة، وكان مطلوبًا من النظام الفاسد، حيث تعمد السلطة إلى إقصائهم أوسجنهم، تفهم أمينة المفهوم الحقيقي للحرية فتساعد عباس في طبع منشورات سياسية ضد نظام الحكم، أملاً في الحصول على حرية أكبر هي

حرية الوطن، فيتم القبض عليهما ويسجن كلا منهما، وتسجن أمينة وعند سجنها يقول زوج عمتها "شايف اللي بيتمرد على التقاليد بيحصله إيه"،وهذا هوما يعكس عقاب السلطة المجتمعية لمن يخالفها بالسجن. فكانت علاقة أمينة بالمكان هنا علاقة سلبية مرفوضة، لكن في الوقت نفسه تدرك أمينة أن الحرية مسئولية وأنها وسيلة لتحقيق الهدف المنشود وأن مفهوم الحرية الحقيقي أكبر وأعظم مما كانت تبحث عنه طوال السنين الماضية.

يتجلى البعد المكاني النفسي في رواية "أنا حرة" بشكل واضح وصريح على الرغم من التحديد الجغرافي المكاني الدقيق لأماكن سكن البطلة والأحياء التي تنقلت فيها، إلا أنه يظل البعد النفسي للمكان هو البطل الحقيقي الذي تعيش فيه أمينة داخل ذاتها، فشعورها بأنها مسجونة داخل أفكار اجتمالية بالية رغم انتقالها الفعلي إلى براح حرية أبيها إلا أنها كانت مازالت تبحث عن الحرية المطلقة، التي حصلت عليها في سجنها لأنها أصبحت ذات هدف أسمى فهي تقوم بدور فعال لخلاص وحرية مجتمعها كله فوجدت ذاتها تتحرر.

هنا يظهر مكنون البعد النفسي للمكان، ففي السجن شعرت أمينة بالحرية لأنها ذاتها عاشت في براح الحرية الحقيقية.

من خلال ما سبق يتضح مدى قدرة تشكيل المكان على إثارة انفعال الأشخاص وإظهار دواخلهم والكشف عن أغوار أنفسهم، بحيث يشكل فضاء للعالم النفسي أكثر من كونه يصف المكان جغرافياً... أو مادياً.

مقارنة بين أمينة في رواية "أنا حرة" لإحسان عبد القدوس وأمينة في "ثلاثية نجيب محفوظ":

تظهر شخصية أمينة في ثلاثية نجيب محفوظ بصورة الأم النقية الفطرية البعيدة عن التأثر بأي تطورات عصرية، كانت لا تدري من أمر البلاد شيئاً، فقد بلغ جهلها السياسي حد أن استوى لديها المصري والمحتل لا تدري لماذا عليها أن تكره الجندي الإنجليزي، كانت أمينة منعزلة اجتماعياً كانت حبيسة بيتها، لم تخرج منه أبداً إلا مع زوجها إلا لتزور أمها زيارات متباعدة، كانت لا تجلس بين يدي زوجها إلا وهي خافضة العينين وكانت تجلس تحت قدميه تغسلهما له بعد عودته من سهراته النسائية، حيث كانت تعرف أنه يخونها، لكنها كانت تحمد له أنه لم يتزوج عليها.

لم تحمل أمينة يوماً هم مصروف البيت أو الخروج لشراء متطلبات المعيشة فلم يقصر زوجها في مسئولياته المادية أبداً.

تعايشت أمينة مع استبداد زوجها حين رأت أن لها دوراً أكبر وأهم وهو الحفاظ على البيت والأولاد، فقد اتسع قلبها للجميع بما فيهم ابن زوجها ولعدم تفرقتها في حبها للجميع كبر الأخوة والأخوات كعصبة واحدة.

تلك كانت صورة المرأة (الزوجة والأم) التي تعيش تحت وطأة القهر الذكوري التي عوقبت بالطلاق عندما خرجت لتزور مقام الحسين بدون أذن زوجها.

لكن هل تغير هذا الهوان والذل مع "أمينة" عبد القدوس؟

يدل عنوان رواية "أنا حرة" على مسارها السري الذي يستكمل أحلام قاسم أمين في فك قيود المرأة والدعوة إلى حريتها.

نشأت "أمينة" بين عمة زوجها يمثلان الجيل القديم الذي يؤمن بأن البنات لا مستقبل لهن إلا في الستر والزواج والعيش في كنف زوج هو تكرار لصورة وسطوة السيد أحمد عبد الجواد في ثلاثية نجيب محفوظ، ترفض أمينة هذا المصير لذلك كانت في صدام دائم مع عمتها وزوجها.

تمثل القراءة الأولي الظاهرة في رواية " أنا حرة " أن البطلة سعت لحريتها وحققتها، هذه الرسالة موجودة على سطح سطور الرواية تجعلها نموذجا يستشهد به أنصار النسوية، فهي تمثل لهم نموذجا يجسد فيه قوة المرأة وقدراتها على الاستقلال بنفسها، لكن عند القراءة المتأنية لما بين سطور الرواية ينقلب المعنى رأساً على عقب فهي نموذج يمثل هزيمة المرأة ويمثل ضعفها الفطري.

إن الوحدة هي التي دفعت أمينة للاتصال بمكتب عباس لمقابلته حتى انتهي المطاف بأمينة في السكن في شقة عباس.

تمثل أمينة من خلال رؤية الكاتب أزمة الفتاة البرجوازية التي مضت وحدها تبحث عن حريتها لا لتحقيق هدفاً، وإنما لتحقق مطالب الجسد، ومن هنا كان التعبير عن الجنس في روايات إحسان تجسيداً لأزمة الحرية عند الفتاة الغنية.

إن أمينة سعت إلى حريتها ووصلت إليها، لكن حين وصلتها كانت وحيدة ولم تنسجم هي مع هذه الوحدة، إلا هروبا من حريتها التي كانت قد امتلكتها.

ولكي تتحرر "أمينة" من تقاليد أسرتها ووحدتها، كان عليها أن ترتكب جرماً مزودجاً، أن تنبذ الدين والتدين، وأن تثور على مؤسسة الزواج التقليدية وتسكن مع عباس ثماني سنوات دون زواج، وتشعر بأنها لو كانت قد قابلت عباس قبل استكمال دراستها الجامعية ما كانت أكملتها.

"أمينة عبد القدوس" لا تعدو كونها طبعة أكثر حداثة من "أمينة نجيب محفوظ" فمع تعاقب الزمن لم يتغير أي شئ مما هو متوقع منها، فأصبحت تطبخ وتنظف البيت، بل وتولت هي مصروف البيت، هي تخضع له في نهاية الأمر وتجلس عند قدميه بنفس الطريقة التي تجلس بها "أمينة" في الثلاثية، لغسل قدمي زوجها، وهي الطريقة نفسها التي تجلس بها عمتها تحت قدمي زوجها تنظف له الحذاء، ينتهي الأمر بـ"أمينة عبد القدوس" أن تفقد شخصيتها تماماً وأن تجلس هي الأخرى تحت قدمي عباس تساعده على ارتداء حذائه.

يسلبها عباس حريتها بكل إرادتها، لأنها كانت تعطي عباس دون أن تأخذ منه، ومن هنا تنقلب القيم والمعايير في نفس أمينة، حيث يصبح العلم كأن لم يكن والعمل عبثا بعد أن كان غايتها وأصبح الزواج رذيلة يخشى منه على حبها لعباس

إن ظروف نشأة "أمينة" المعقدة وانفصال والديها وتربيتها كاليتيمة في منزل عمتها أوغرت صدرها وأورثتها عناداً وحقداً، فهي في تحليل إحسان للشخصية فتاة معقدة أصبحت عنيدة من أجل العناد والمعارضة والانتصار لنفسها الجريحة.

ظهر عباس في صورة البطل الذي أسلمت جسدها له وتماهت معه كأنه لا وجود لها بجانبه فقد ذكر في الرواية جملة واضحة "لن يملأ هذا الفراف إلا رجل"

لم تكن رؤية الكاتب للمرأة في هذه الرواية رؤية صادقة، وحصر نفسه في إطار نموذج لم يعد له مكان في المجتمع.

ونرى أن كلا من إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ قد حقق مكانة روائية بارزة عربيا وعالميا حيث ترجمت لهما العديد من الروايات إلى لغات أجنبية مختلفة نفذت إلى أعماق المجتمع العربي، وعكست أعماق الإنسان المصري بشكل عام والمرأة بشكل خاص، وذلك من وجهة نظر كل كاتب منهما، عاش واقع بلده ومجتمعه بأزماته وانكساراته الداخلية والخارجية فتأثر فكريا بمثل تلك الأحداث مثل هذه الرؤي الفكرية لن تتجاوز صاحبها إلا من خلال أدب واعٍ يقظ يحث الفرد والأمة على التغيير نحو الأفضل، حتى وإن اختلف منهج وفكر ولغة التعبير عند كل من الكاتبين.

إن الفرق في رؤية المرأة عند إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ فرق كبير من حيث الزوايا المختلفة في ثقافة النشأة والبيئة لكل منهما فقد نشأ إحسان داخل أسرة متمردة بطبعها ثم تمرد مرة أخري على النموذج الأسري الذي نشأ فيه.

إحسان عبد القدوس هو فارس الرواية الرومانسية وأحد أوائل الروائيين العرب الذين تناولوا في قصصهم الحب البعيد عن العذرية، حيث كانت معظم شخصياته الروائية من الطبقة الارستقراطية، في حين اقتحم نجيب محفوظ الحواري والأزقة والأماكن الشعبية ومشكلاتها الاجتماعية في مرحلة من مراحل الشقاء واليأس والفقر التي تضافر فيها الاستعمار مع ضعف الوازع الديني، هي مرحلة الواقعية الاجتماعية عند محفوظ، كتب في هذه المرحلة مجموعة من الروايات هي في مجملها مأساوية، تعكس مأساة المجتمع والواقع بأكمله، حيث انصب اهتمامه في هذه المرحلة برسم صورة لفساد النظام الاجتماعي القائم في مصر آنذاك، وخاصة رواية " زقاق المدق " التي تعد انتقالة واضحة وإيجابية في أسلوب نجيب محفوظ الروائي، فقد استطاع أن يقدم فيها صورة عميقة للبيئة الحقيقية في زقاق صغير من زقة القاهرة بكل أحداثها وشخصياتها ومكانها وزمانها جعلنا نحس وكأننا نتعايش مع أناس حقيقيين نلتمس حياتهم وصراعهم القائم حول معاناة الفقر ومانجم عنه في أنفسهم من قهر نفسي واجتماعي دفع بالكثير منهم غلي الهروب من واقع الزقاق والتطلع إلى حياة أفضل.

استخدم محفوظ في هذه الرواية أسلوب الحكاية الشعبية، وحاول أن يخلص أسلوبه من صيغ البلاغة وانتقل إلى التصوير والتجسيد بأسلوب تقريري يعمد إلى الشمول والمباشرة، فحاول الكشف عن الشخصيات وبيئاتها نفسيا واجتماعيا قدر استطاعته، معتمدا في ذلك على أسلوبه التقريري الذي يحدد من البداية الملامح العامة التي يظن المؤلف أنها ملامح ثابته وفي هذا أمر يدل على فرض نجيب محفوظ شخصيته على أبطال رواياته.

أما إحسان عبد القدوس فطبيعته تميل إلى البوح، فكثيرا ما كان يكتب في رواياته فصولا تبدو وكأنها نوع مؤنق من التحقيقات الصحفية، يرجع هذا الأسلوب إلى تأثير الصحافة التي تهتم بمعالجة وتفاصيل الأحداث أما الأدب فيهتم بالتكثيف والتركيز، من الأسباب الأخري التي فرضت هذا الوضوح على أسلوبه إحساسه بأنه لا يخاطب القاريء المثقف، بل القاريء البسيط لذلك كان حريصًا على التبسيط الشديد في أدبه، فعندما كان يكتب إحدي رواياته لم يكن يضع في حسابه مقاييس النقد والنقاد، بل كان يفكر في نجاحها وشعبيتها.

إن المرأة في كتابات نجيب محفوظ الأدبية ساقطة رغمًا عنها فهي في المقام الأول إنسانة تؤثر وتتأثر بالظروف المحيطة بها ففي رواياته التي نشرها بعد ١٩٤٥ نلاحظ اقترابه من الواقعية الحديثة التي تقوم على المعالجة للواقع المعاصر وفق منظور هذا الاتجاه إذا دخل الروائي الأحياء الشعبية

باعتباره ناقدًا اجتماعيًا وسلط نظره على الطبقة المتوسطة التي هي أساسًا طبقته الاجتماعية التي ينتمي إليها.

أما انحراف المرأة في كتابات إحسان عبد القدوس فكان بإرادتها نابعا من رغبتها في ذلك، حيث نجد أمينة في رواية " أنا حرة " تصر على أن تكون نموذجًا نقيضًا للمتعارف عليه في المجتمع، فكانت لا تكف عن الصرخ والعناد والرفض لكل ما تري فيه مساسا بحريتها، ولا تبدو المسافة كبيرة بين الراوي العليم بكل شيء وإحسان، فكلاهما واحد وكلاهما يستعرض حياة أمينة بما يجعلها مرآة تعكس تصورات إحسان عن عالم الحرية الذي يطلبه.

وأيا كان اختلاف الرؤي الفكرية عند الكاتبين إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ من منظور المرأة في الرواية لديها إلا أن الحرية على اختلاف مستوياتها كانت المطلب الشرعي والأساسي عندهما، ويمكن القول إن قيمة الحرية الفردية للإنسان تتضاعف حين نعلم أنها تتحول إلى حرية جماعية، التي تؤدي بدورها إلى حرية الوطن.

هكذا كانت الرؤية عند الكاتبين فهي وإن كانت منسوجة لغة وأسلوب مختلف عند كل منهما إلا أنها صنيعة فكر تعايش مع الواقع تأثر بمعطياته، فالروائي فرد في مجتمعه قبل كل شيء، تدفعه وطنيته إلى الاندماج والتفاعل بوعيه وفكره مع حركة الحياة فيه، إذ تتحاور مرجعياته الفكرية مع قضاياه السياسية والاجتماعية والاقتصادية فتكون نصوصه الاباعية وليدة رؤيته لذلك كله.

تحدث "نجيب محفوظ" في شتي أعماله الأدبية عن الشخصيات النسائية بواقعية، حتى لو كانت صورا سلبية، مع إبراز الجوانب النفسية والإنسانية العميقة داخل كل شخصية منهن، مع نقل الواقع المعايش كما هو بقيوده، وبذكوريته المتعجرفة، لكنه لم يقدم مخرجا ثوريا للمرأة في رواياته ولا أي حلول ايجابية مكتفيًا فقط بمحاكاة الواقع كما هو.

الهوامش:

(١) – طه وادي، شعر ناجى، الموقف والأداة، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩٤، ص٥٢.

(٢) – السابق: ٥٢، ٥٣.

(٣) – ديب على حسن، نجيب محفوظ بين الإلحاد والإيمان، المنارة، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص١٠٩.

(٤) د. سليمان الشطي، الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص١٣١.

(٥) غالي شكري، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، مرجع سبق ذكره، ص١٠٠، ١٠١.

(٦) سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ص٧٤.

(٧) أيمن رجب عبد السلام، البناء الروائي عند خيري شلبي، ؟؟؟؟؟؟؟، ص٣٠٧.

(٨) محمد قطب عبد العال، الذات والموضوع، قراءة في القصة القصيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص٥٠.

(٩) عبد العزيز شبل، الفن الروائي عند غادة السمان، دار المعارف، سوسة، تونس، ط١، ١٩٨٧، ص٤٩.

(١٠) الرواية، ص٥.

(١١) الرواية، ص٢٠٣.

(١٢) الرواية، ص١١٤.

(١٣) الرواية، ص٧.

(١٤) الرواية، ص٦.

(١٥) الرواية، ص٦٠.

(١٦) الرواية، ص٢١.

(١٧) الرواية، ص٦٠.

(١٨) أسماء ساتة، آليات السرد فى رواية "زقاق المِدَق" لنَجيب محفُوظ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر أكاديمى، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربى، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، ٢٠١٦-٢٠١٧م، ص٥٢.

(١٩) نجيب محفوظ، زقاق المِدَق، ص٥.

(٢٠) نجيب محفوظ، زقاق المِدَق، ص٦.

(٢١) نبيل راغب، قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٥، ص١٠٩.

(٢٢) إحسان عبدالقُدوس، أنا حرّة، دار الهلال، وقد نشرت مسلسلة في روز اليوسف، ١٩٥٣، وفي كتاب ١٩٥٤،ص٥.

(٢٣) عبد العزيز شبل، مرجع سبق ذكره، ص٤٦.

(٢٤) محمد عزام، فضاء النص الروائي، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط١، ١٩٩٦، ص١١٣.

(٢٥) نبيل راغب، التفسير العلمي للأدب، نحو نظرية عربية جديدة، المركز الثقافي الجامعي، د.ت، ص١٣٠.

المراجع

١. ديب على حسن، نجيب محفوظ بين الإلحاد والإيمان، المنارة، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص١٠٩.

٢. سليمان الشطي، الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ، ص١٣١.

٣. سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤

٤. محمد قطب عبد العال، الذات والموضوع، قراءة في القصة القصيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤

٥. عبد العزيز شبل، الفن الروائي عند غادة السمان، دار المعارف، سوسة، تونس، ط١، ١٩٨٧

٦. أسماء ساتة، آليات السرد فى رواية "زقاق المِدَق" لنَجيب محفُوظ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر أكاديمى، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربى، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، ٢٠١٦-٢٠١٧م

٧. نبيل راغب، قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٥

٨. إحسان عبدالقُدوس، أنا حرّة، دار الهلال، وقد نشرت مسلسلة في روز اليوسف، ١٩٥٣، وفي كتاب ١٩٥٤

٩. محمد عزام، فضاء النص الروائي، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط١، ١٩٩٦

نبيل راغب، التفسير العلمي للأدب، نحو نظرية عربية جديدة، المركز الثقافي الجامعي،